وأخذ المهلل يستعد للحرب ، وفى محاولة لإنقاذ الموقف المتردى قبل أن يصل إلى نقطة اللا عودة جمع إليه قومه ، وأرسل رجالات من أشرافهم إلى شيبان حتى يتبين موقفها من الأزمة المستحكمة ، فأتوا مرة بن ذهل أبا جساس وهو فى نادى قومه ، وقالوا له : إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناب من الإبل ، فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نعرض عليكم خلالا أربع لكم فيها مخرج ولنا مقنع . فقال مرة : وما هى ؟ قالوا : تحبى لنا كليبا ، أو تدفع إلينا جساساً قاتله فنقتله به ، أو هماما فإنه كفء له ، أو تكننامن نفسك فإن فيك وفاء من دمه ، فقال أما إحيائى كليبا فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوى عليه ، وأما همام فإنه أبو عشرة وإخوته عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم ، فإن يسلموه لى فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره ، وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غدا فأكون أول قتيل بينها ، فما أتعجل من الموت ؟ ولكن لكم عندى خصلتان: أما إحداهما فهولاء بنىّ الباقون ، فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نسعة، فانطلقوا به إلى رحالكم ، فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلافألف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلاً من بنى وائل ، فغضب القوم ، وقالوا : لقد أسأت ، ترذل لنا ولدك ، وتسومنا من دم كليب ! ولم تفلح السفارة ، وعاد الوفد إلى المهلهل الذى أمر بقرع طبول الحرب ورفع رايةالقتال .

واشتعلت النيران بين الفريقين ، وانقسمت قبائل ربيعة على أنفسها ، فانضمت قبائل منها إلى تغلب ، واعتزلت قبائل أخرى القتال . ووقفت شيبان تحارب وحدها ، وتعددت الأيام بينها وبين تغلب ومن انضم إليها حتى بلغت أحد عشر يوما عقد لواء النصر فى أكثرها لتغلب ، ثم أخذت كفتها تشيل عندما تدخل الحارث بن عباد فى المعركة ، وكان قد اعتزل القتال منذ بدايته وقال قولته المشهورة التى ذهبت مثلا: «لاناقة لى فى هذا ولا جمل» . ففى